الشعائر الجنائزية في بلاد الرافدين

Funeral Rituals In Mesopotamia

د. ليلى بومريش
Leilaboumriche@yahoo.fr
جامعة الجزائر2-أبو القاسم سعد الله-

تاريخ الاستلام: 2020/04/05 تاريخ القبول للنشر: 2020/04/08 تاريخ النشر: 2020/07/03

ملخص:

لقد مثل الموت في معتقدات الإنسان الرافدي القدر المحتوم الذي حَرِمه من حياة الأبدية، وقد عبرت العديد من أساطيره عن حبه للحياة وبحثه عن سر الخلود، غير أنه لم يصل إلى مبتغاه، وقرر العمل من أجل طول العمر والحياة السعيدة، لكن سيأتي يوم الممات، الذي تنفصل فيه الروح عن الجسد، فيبلى هذا الأخير في التراب، وتنزل الروح إلى العالم الأسفل دون رجعة، وعليه اهتم بإقامة طقوسه الجنائزية، من بناء القبر، إلى تقديم القرابين ووضع الأثاث الجنائزي وغيرها، وهذا من أجل أن تنعم أرواح الموتى بالهدوء ولا تزعج الأحياء في العالم الدنيوي.

الكلمات المفتاحية: بلاد الرافدين؛ الموت؛ الطقوس؛ القرابين؛ القبر.

Abstract:

According to Mesopotamians beliefs, death was their inevitable destiny that deprived them from eternal life. A lot of myths portrayed his love of life and his continuous search for the secret of eternal life. As a result; he failed to accomplish his goal. He worked hard for long and happy life. Thus ,the day of death would be sooner where soul was going to separate from the body ,and then it would irreversibly travel to the netherworld .Therefore the Mesopotamians were interested in building tombs, making offerings and providing funeral furniture and so on , in

order to make dead souls to feel rest and do not disturb the living beings in this world.

key words: Mesopotamia; death; rituals; Offerings; tomb.

مقدّمة:

اهتم الإنسان الرافدي بمسألة مصيره، وبحث في أساطيره وملاحمه حول إمكانية الخلود والحياة الأبدية من خلال العديد من النصوص الدينية والأدبية منها نص "نرجال وأرشجيكال" وملحمة "جلجامش"، إلا أنه توصل في نهاية المطاف إلى نتيجة أفزعته وأيقظت مضجعه وهذا وما نقرأه في سطور ملحمة جلجامش:

"وأفزعني الموت حتى همت على وجهي في البراري

إن النازلة التي حلت بصاحبي تقض مضجعي

آه، لقد صار صاحبي الذي أحببت ترابا

وأنا سأضطجع مثله فلا أقوم أبد الآبدين

أيكون في وسعي أن لا أرى الموت الذي أخشاه وأرهبه"[1]

هذا المصير الذي لا مهرب منه "حتمية الموت" لا توجد أية وسيلة لقهره، وهذا ما أكده نص اللوح التاسع من ملحمة جلجامش:

"الآلهة لما خلقت البشر

جعلت الموت لهم نصيبا

وحبست في أيديها الحياة..."[2]

وعليه لم يجد الإنسان في هذه المرحلة من تاريخ بلاد الرافدين سوى الاستسلام للمصير الذي قررته الآلهة له، ومن هذا المنطلق سنحاول إلقاء الضوء على مختلف الطقوس الجنائزية التي يقوم بها الإنسان الرافدي من أجل أن تنعم روحه بالسكينة، ولا تحرم من النزول إلى العالم السفلي والاستقرار فيه إن حُرم جثمان صاحبها من الدفن وإقامة هذه الشعائر له، وذلك بالتطرق إلى النقاط التالية: كيفية تهيئة القبر، القرابين

الجنائزية المقدمة، الأثاث الجنائزي، والحداد الذي يقيمه أهل الميت حزنا على فراق أحبتهم.

1-تهيئة القبر:

لم تكن شعائر الدفن مرحلة انتقالية من حيث محتواها فقط، بل من حيث تنظيمها المكاني أيضا، فقد اعتبر الإنسان الرافدي هذا الطريق الأخير من البيت إلى المقبرة بمثابة مدخل إلى العالم الأسفل، وكان القبر هو المكان الذي امتدت منه الدروب إلى العوالم كلها، لذلك كانت مواقع الدفن تمثل في كثير من الأحيان نموذجا عن ذلك العالم[3]، "عالم ما بعد الموت" الذي كان بالنسبة للإنسان المصري القديم عالم الخلود الأبدي، وبالنسبة للرافدي عالم يتلاشى فيه الجسد دون رجعة، وانعكست هذه النظرة المتشائمة على أهمية القبر بالنسبة له، هذا المكان الذي أطلق عليه لفظ "كي-ماخ" (ki-makh) في اللغة السومرية بمعنى الأرض العظيمة[4]، وكذا عدة مصطلحات منها "قبرو"qabru وهي كلمة أكدية استخدمت للدلالة على القبر وكذا العالم الأسفل، ومصطلح "شتو"suttu و" خرو" hurru وكلاهما يعني بالأصل "حفرة"[5].

أ-تطور بناء القبور:

لقد مر بناء القبر بعدة تغييرات، وكشفت أعمال التنقيب الأثرية عن الكثير من المدافن والمقابر، حيث تعود عملية دفن الموتى إلى العصور الحجرية (العصر الحجري الوسيط[6] والعصر الحجري الحديث)، وامتلك بذلك الانسان الرافدي المشاعر الإنسانية المتعلقة باحترام الأموات والاهتمام بطقوس الدفن من خلال ما تركه على جدران كهوفه التي سكن فيها[7]، فقد عثر في كيش وأور[8] على قبور تحوي العديد من مخلفات مراسم الدفن، كما احتوت قبور عصر العبيد وأوروك وجمدة نصر على بعض الأثاث المأتمي من الخزف المطلي، والتماثيل من الطين المشوي، والأختام الأسطوانية، وعثر في القسم الجنوبي الغربي لحرم المعبد على مقبرة في أور تحوي على قرابة الألفي مدفن، ترجع إلى حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، أطلق عليها اسم "المقبرة الملكية"[9].

كما عرفت عملية بناء القبور تطورات مهمة، منها ما دلت عليها موقع أبو الصلابيخ الذي تم الكشف فيه عن مجموعة من القبور الغنية بالأثاث الجنائزية المتنوع، وقد بلغ عددها حوالي مئة وثمانين (180) قبرًا، على شكل قبور مبنية من اللبن ومفروشة بحصير من القصب، إضافة إلى استخدام الجرار الفخارية في هذه المقبرة لدفن البالغين والأطفال على حد سواء[10]، وقد تنوعت أساليب وطرق الدفن ابتداءً من الدفن تحت أرضيات دور السكن مروراً بالدفن بين البيوت، وصولاً إلى تخصيص مساحة معينة للدفن بهيئة مقبرة خارج المدن.

إذ كانت عملية دفن الموتى تحت أرضيات المساكن –كما سبق وأشرنا– أقدم تقليد اتبع في تاريخ بلاد الرافدين، إذ كشفت حفريات مدينة نيبور القديمة عن قبور وجدت تحت أرضيات المساكن تعود إلى عصر فجر السلالات الأول عام 2800 ق.م، كما دلت تنقيبات ليونارد وولي (Leonard Woolley) في موقع مدينة أور القديمة عن وجود غرف مخصصة للدفن في بيوت عصر سلالة أور الثالثة، فكان في كل منزل تقريبا – باستثناء منازل الفقراء– جزء خاص لدفن الموتى في شكل مصلى عائلي، ويكون هذا الجزء وراء البيت مباشرة، وكان يشيد بشكل غرفة طويلة ضيقة تختلف عن باقي غرف المنزل إذ لم تكن تلك الغرفة مسقولة، ويُدخل إليها عبر باب موجود في أحد جوانبها، وتوجد تحتها مائدة للنذور ومحرقة للبخور[11]، ومن خلال تنقيبات لارسا عثر على منزل لشخص اسم "سانوم" (Sanum)، قام ببناء تحت أرضية منزله في واحدة من غرفه الرئيسية التي يشار إليها بـ (ganūnu)–الذي يعني صالون–مكانا لدفنه وذكر: "إنه ganūnu" ، كما يقول ، **"لقد بنيت عليه حتى أتمكن من الذهاب إلى هناك للراحة ، وفي اليوم الذي ينتهي فيه مصيري أي بمجرد موتي ، سوف أدفن هناك"**. وقد كان لهذا الرجل أربعة أبناء، ويبدو أن ابنه الأكبر ورث منه هذا الجزء من المنزل الذي كان به قبو الأسرة[12].

وعليه فإن الدافع الرئيسي للدفن تحت أرضيات البيوت هو أن الموت لا يعتبر نهاية الإنسان حسب اعتقاد الأسرة في بلاد الرافدين، وإنما يُعبر عن الاستمرارية في اعتبار المتوفى عضو في العائلة[13] لا ينبغي له الابتعاد عنها حتى بعد وفاته، هذا إضافة إلى ضمان المحافظة على الجثة من التخريب والعبث، وبالتالي إزعاج روح المتوفى في العالم السفلي[14].

كما عرفوا الدفن في القصور، وكان هذا امتياز خاص بالملوك الشرعيين فقط، وقد مورس هذا التقليد أيضا في بلاد أشور الذين دفنوا ملوكهم في القصر الملكي القائم في العاصمة أشور حتى بعد انتقال مقر حكمهم من هذه العاصمة إلى نينوي، كما شيدت لبعض الملوك منهم ملوك سلالة أور الثالثة أضرحة مستقلة بها مزارات خاصة تحتوي على العديد من الغرف كانت تمارس بها الشعائر الجنائزية وتقدم بها النذور لهم[15].

أما عملية الدفن في المقابر العامة فكانت تقام في مقبرة كبيرة خارج مناطق سكناهم، والتي تغير شكلها مع العصور، وهكذا كانت القبور مغلقة[16]، عهد بها إلى أشخاص مرتبطين بالمعبد وكانوا يتقاضون مقابل عملية الدفن أجورا ربما تكون باهظة أحيانا، حيث وردت بعض الإشارات في القوانين الرافدية القديمة ومنها إصلاحات أوركاجينا سنة 2355 ق. م، إلى تلك الأجور ومحاولة تخفيضها، إذ كانت الأجور تؤخذ على الدفن وعلى الأرض التي كانت تدفن فيها الجثة، حيث يسرد من هذه الإصلاحات تكاليف عملية الدفن ومحاولة أوركاجينا التخفيف منها[17]، إذ تذكر: **"لقد كانت جعة الذي يأتي بالميت إلى المقبرة لدفنه سبعة أباريق وأربعمائة وعشرين رغيفا من الخبز، فضلا عن واحد أولUl (وزن) من شعير نوع (حازي) ورداء ومسند رأس واحد وسرير واحد"[18]**.

أما وضعية الجثة فتشير إلى عدم التزام سكان بلاد الرافدين بقاعدة محددة لوضع الجثة في القبر أو لاتجاهها، فالغاية من الدفن المساعدة على نزول الروح إلى العالم السفلي أينما كانت منطقة موتها، ولذلك يمكن أن يوجه القبر نحو أي اتجاه ويمكن أن تكون

الجثة في داخله بأية وضعية[19]، فنوعية الشعائر الجنائزية التي ستقام للميت، إن كانت فخمة أو عادية، أو كيف سيكون الحضور كبيرا أو قليلا، هل يودعون الميت في جو تسوده المشاعر الصادقة الحزينة على فراقه أو غيرها يتحكم فيها الوضع الاجتماعي والاقتصادي لعائلة المتوفى.

إضافة إلى ذلك استعملت شواهد القبور المدونة بالخط المسماري للدلالة على القبور والإعلام عنها وعن الأشخاص المدفونين فيها، إلى جانب حماية القبر ومحتوياته من عبث العابثين وتحذيرهم من انتهاك حرمته[20]، وقد وجدت هذه العبارات على أحد الشواهد:" **للأبد، بتوالي الأيام، على الدوام، في الأيام المقبلة، عسى من يرى هذا القبر أن لا ينتهك حرمته، ولكن يعيده إلى مثل ما كان عليه، إن الشخص الذي يرى هذه (الكتابة) ولا يستخف بها، بل يقول: سأعيد هذا القبر إلى مثل ما كان عليه'، عسى أن يعود عليه بالخير العمل الذي يعمله، عسى أن يبجّل اسمه على الأرض، عسى أن تشرب روحه الماء النقي في العالم السفلي"[21].**

من هذه الكلمات نلاحظ مدى خوف سكان بلاد الرافدين من عملية نبش القبور، لأنها تزعج أرواح الموتى في العالم الأسفل، وتقودهم إلى الصعود إلى عالم الأحياء لتهاجمهم، والأمثلة عديدة حول هذه المسألة.

ب–وصف مقبرة أور الملكية:

حرص الرافديون القدامى على دفن ملوكهم[22] في مدافن تليق بمكانتهم، رغم أنها لا ترتقي في مستواها المعماري إلى مدافن الفراعنة، إلا أنها بدت مجهزة بكل ما يحتاجه الملك في العالم الأسفل، ومن هذه المقابر مقبرة أور التي أثارت الدهشة والإعجاب بكنوزها الذهبية، وقد كانت مخصصة لملوك هذه السلالة، وهي عبارة عن قبور ضخمة مكونة من سراديب ذات عُقَد متقنة من الآجر شُيّدت فوقها معابد لعبادة الملك المقدس وتقديم القرابين إليه[23].

تقع أنقاض هذه المقبرة على بعد حوالي مائتي وعشرين ميلاً جنوب بغداد ومائة وستين ميلاً من مياه الخليج الفارسي[24]، وقد حدد ليونارد وولي بداية تأريخ هذه المقابر بـ 3500 ق.م-3200ق.م[25] ، وما يلفت النظر أن مجموع ما خصص بكونه قبرا ملكيا لا يقل عن ستة عشر قبرا[26]، في حين أن هذه المقابر كثيرًا منها لم يقتصر على دفن شخص واحد في القبر، بل وُجد فيه -بالإضافة إلى صاحب القبر أو الشخصية الرئيسية التي شُيّد القبر من أجلها (الملك)- عدد من البشر الملحودين والحيوانات والعربات، وكذلك مجموعات نفيسة من الحلي الذهبية والمجوهرات والأحجار الكريمة، منها قيثارة أور الذهبية التي لم تكن الوحيدة بل وُجدت نماذج منها ضمن الآثار الذهبية لهذه المقبرة[27].

هذه المقتنيات وغيرها أثارت العديد من التساؤلات بين الباحثين حول تفسير الغاية من وجودها في هذه القبور، وعلى رأسها وولي، الذي اعتقد أن هذه المقابر وما فيها من جثث تمثل تضحية بشرية من الأتباع والحاشية من أجل سيدهم الملك لمصاحبته في رحلته إلى عالم الأبدية-وهذه المعتقدات كانت معروفة عند المصريين- وإن كانت نوعية هذه المقابر لم تعرف في بلاد الرافدين أو في مكان آخر خارج مدينة أور قبل تلك الفترة، حيث أن أولئك الأتباع كانوا يقبرون مع أسيادهم وهم أحياء، بعد تناولهم السم، وتقتل الحيوانات ويدفن الجميع في احتفالات جنائزية مهيبة[28].

ومما يفسر هذا اللغز ما ذكرته بعض الأساطير السومرية ومنها أسطورة "موت جلجامش"، إذ فيها إشارات إلى بعض الأبطال الملوك وأن حاشيتهم قد دفنت معهم وكان أولئك الملوك والحكام يتصفون بصفة الألوهية[29]، وليس معنى ذلك أنهم اعتقدوا بوجود عالم آخر بعد الموت مثلما فسرت هذه الظاهرة عند المصريين.

أما المجموعة الثانية، وإن اختلفت في بعض التفاصيل فإنها ترى أن هذه المقابر لم تكن مدافن، وإنما مثلت طقوساً بدائية لعقيدة الخصب في الألف الثالث قبل الميلاد المعروفة بالزواج المقدس، وهو الزواج الذي اعتقد القدماء بأهمية إقامته كل عام لضمان أسباب

الخصب والنماء في المجتمع الرافدي، واعتقد أصحاب هذا الرأي أنه ليس من الضروري أن يكون الملك والملكة الشخصيتين الرئيسيتين في هذا الزواج، وإنما كان دور الزوج الإله أي إله الخصب دموزي يسند إلى أحد الكهان، بينما تؤدي معه إحدى الكاهنات دور الزوجة الإلهة أي إلهة الخصب" إنانا"، وبعد أن يتم الكاهن والكاهنة دورهما في محاكاة هذا الزواج ،كان يجري قتلهما ودفنهما مع بقية المشاركين في أداء تلك الطقوس من الرجال والنساء[30].

والمهم من كل هذا أن هذه الممارسات[31] لم تعد موجودة بعد هذا العصر، لأنه لم يُعثر على مخلفات تثبت ذلك، بمعنى أن محتوى تلك المقابر الملكية من جثث وأدوات كانت عادة سومرية محضة، ربما تخص طبقة الملوك، لم يكن لها أي تأثير من الخارج، لكن بمجرد انقضاء الفترة السومرية تخلوا عن تلك الممارسات العنيفة، ربما لما رأوا ما للحياة من متعة.

2-القرابين الجنائزية:

إن المعالجة الوحيدة للجثة هي الدفن، فكانت عملية وضع الجسد في التراب مناسبة لـ "عودته إلى الطين"، لأنه حسب الأساطير الرافدية خلق الإنسان من الطين، وبعد وفاته يدفن في الطين أيضا، حسب إرادة مبدعه إنكي-أيا -لأنه هو من قال بفكرة خلق الإنسان-وعدم دفن هذا الجسد، يؤدي إلى سقوط الإنسان في "العدم"، لكن فكرة العدم غير مقبولة كثيرا[32]، بمعنى أن التلاشي في الهاوية يمثل انعدام الأمل، وفي نفس الوقت العالم السفلي لا يمثل العدم، بل إنه عالم مظلم كئيب، يقطنه الموتى، ويمكنهم العيش في هدوء إذا أقيمت من أجلهم القرابين. وتتضمن هذه القرابين السومرية ثلاث وسائل لتهدئة روح الميت عن طريق:

أ- **طقس كسبا:** هو طقس تقديم الطعام على روح الميت، حيث تذبح الخراف وتقدم الزيوت والعطور والبخور والنبيذ الأبيض والفاكهة، وكانت التقاليد تقضي بفرش مائدة ويترك مقعد واحد فارغ لروح الميت الذي أقيمت الوليمة لأجله، وكان هذا المقعد يسمى بالسومرية كرسي الروح (كش كوزاديما) ويسمى بالأكدية (كسو اطيمو)[33]،

وبصفة خاصة كانت الأسرة تقيم في نهاية كل شهر، لحظة اختفاء القمر وموته، وجبة خاصة من أجل تأكيد وتقوية التضامن الأسري: "الموتى يدعون بالضرورة أقصد أنه يحتفظ لهم بحصتهم، التي تدعى كيسبو، وهو اسم يتعلق بتقاسم الطعام نفسه، الموزع بهذه الطريقة على الجميع[34]."

ب- طقس ألمي نقو: أي طقس سكب الماء لإرواء ظمأ الميت، وكان يتم برش الماء على تراب الميت وعن طريق أنبوب فخاري ينزل إلى القبر[35]، فقد عثر في أحد الأبنية العائدة الى الملك السومري "شولكي"، من ملوك سلالة أور الثالثة أنابيب فخارية تحت الأرض الى الأسفل بصورة عمودية، كما عثر في الأضرحة الخاصة بالملوك على منافذ خاصة لهذا لغرض[36]، ويبدو أن الماء الذي يُعد أساس الحياة كان من أهم القرابين التي من الممكن أن تقدم للآلهة، إذ نجد أن أولى القرابين التي قدمها أوتونابشتم للآلهة، كان الماء الذي سكبه للآلهة على قمة الجبل، إذ يرد في النص:

"وَسكبتُ الماء المقدس على قمةِ الجبل

ونصبت سبعة قـدور

وكومت تحتها القصب والارز والآسل

فشـم الآلهـة الرائحـة

أجل لقد شم الآلهة الرائحة الطيبة[37]."

ج- طقس شوماز كارو: أي ذكر الاسم، حيث يتم تطمين روح الميت بذكر اسمه دائما لإشعاره بأنه ما زال موجودا بينهم، أو بإطلاق اسمه على مولود جديد[38].

وكل هذه الشعائر وتقديم القرابين الجنائزية، إطعام أرواح الموتى وإرواء أرواحهم الظمأى في العالم السفلي، دائمة التأكيد على أن الميت الذي لم يكن له من يُعنى بإقامة شعائره الجنائزية، كانت روحه تعاني معاناة قاسية في العالم السفلي وهذا ما يشير إليه اللوح 12من ملحمة جلجامش:

"قال جلجامش لأنكيدو: قل لي يا صديق

خبرني عن نظام الأرض التي شاهدت ؟

...عندئذ قال الملك جلجامش وهو وجالس على التراب

هل رأيت الذي أنجب ولدا واحدا؟

نعم رأيته: إنه يبكي عليه..

...هل رأيت الذي أنجب ثلاث أولاد؟

نعم رأيته: ...يشرب الماء.

..هل رأيت الذي أنجب أربعة

نعم... إن قلبه فرح......"[39]

وعليه مسألة الإنجاب وكثرة المواليد عند سكان بلاد الرافدين مهمة جدا، لأن الأبناء هم من سيقدمون القرابين لهم، فكثرتهم يعد مفخرة للأسرة، ومن ليس لدية أبناء يقوم بالتبني، وهذا ما يتضح من نصوص عدد من وثائق التبني المدونة باللغة الأكادية والتي تجعل أيضا من مسألة تقديم القرابين الجنائزية شرطا لازما من المتبني، ومن هذه الوثائق واحدة تتضمن شرط امرأة لفتاة تبنتها ينص على ما يلي: " **في حياتي تقومين بإطعامي، وحين أموت عليك أن تقدمي من أجلي القرابين الجنائزية "**[40].

كما ورد في خطاب امرأة اسمها (nun-naditum): "**لقد ربيت ولدًا واحدًا، وفكرت:" ليكبر حتى يتمكن من دفني!"** هذه ليست ظاهرة محددة للفترة معينة، بل نجد في التنقيبات التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، عقد التبني مذكور فيه: "**طالما يعيش باي تيشوب** (PaiTeššup)، كيني (Kinni) سوف تخدمه. عندما يموت (PaiTeššup) ، سوف تبكي كيني وتدفنه"[41].

ويمكن تقسيم الشعائر الجنائزية، بحسب مواعيد[42] إقامتها إلى نوعين:

النوع الأول: يقام بعد حدوث الوفاة مباشرة، وشعائره كانت تختلف بحسب اختلاف مكانة الشخص ومنزلته الاجتماعية، كأن تكون قصيرة وبسيطة للفقراء وذوي المكانة الدنيا في المجتمع، ولكنها كانت أكثر فخامة وتستغرق وقتا أطول للميسورين.

النوع الثاني: كانت الشعائر الجنائزية تؤدى في مواعيد معينة مختلفة الأزمان بعد موت الشخص، يوجد الموعد الشهري: بعد شهر من وفاة الميت، في اليوم التاسع والعشرين من الشهر، حين يكون القمر في المحاق، وكان يُعتقَد أنه يوم تتجمع فيه أرواح الموتى في العالم السفلي ويتوجب فيه على الأحياء أن يقدموا لأجلها القرابين ويقيموا الشعائر الجنائزية، ويطلق عليه في اللغة الأكادية "ببل" (bibbulu) كما وصف بـ "يوم القرابين الجنائزية، يوم سكب الماء إلى أرواح الموتى"، وكذا "يوم وليمة الموتى" و"يوم الندب"، وأما الموعد السنوي لإقامة الشعائر الجنائزية، فكان في شهر آب، وهو الشهر الخامس في السنة البابلية التي كانت تبدأ في نيسان، وكانت القرابين تقدم لأرواح الموتى في ذلك الشهر، وترفع المشاعل من أجلها، وقد اعتبر اليوم التاسع من شهر آب يوما خاصا فيما له علاقة بالشعائر الجنائزية، إذ يشار إليه في النصوص المسمارية بأنه اليوم الذي تمنح فيه أرواح الموتى حرية التحرك في العالم السفلي[43].

ومن بين الرسائل رسالة من "عمي –دتيانا" (1683-1647 ق م)، الملك التاسع من السلالة البابلية الأولى، إلى أحد أتباعه من حكام الولايات يأمره فيها بتوفير الحليب والزبدة اللازمين للقرابين الجنائزية الخاصة بشهر آب، ويرد في نص هذه الرسالة عل لسان الملك: **" يجب تجهيز كميات الحليب والزبدة الخاصة بالقرابين الجنائزية لشهر آب، حالما تقرأ لوحي هذا، مُرْ أحد أتباعك أن يجمع ثلاثين بقرة ومكيال "بي" واحد من الزبدة ويأتي بها إلى بابل حيث يبقى حتى الانتهاء من الشعائر الجنائزية، دعه يجهز الحليب من دون إبطاء، وليأتي على عجل"**[44].

وكانت القرابين الجنائزية إما تدفن مع جثث الأموات في داخل القبور، أو توزع على الناس بعد الانتهاء من عملية دفن المتوفى، وفي كلتا الحالتين كانت كميات الطعام المقدمة كقرابين جنائزية تختلف باختلاف مكانة المتوفى ومقدرة عائلته الاقتصادية، ويدل النص البابلي المكتوب على شاهد قبر "أدرجي" أم الملك البابلي الأخير "نبومائيد" على كثرة الذبائح والأطعمة التي وزعت على الناس حين وفاة أم الملك[45]، كما أن **"تقديم القرابين للآلهة يطيل العمر"**، وكذلك **"من يحترم ويعظم ال أنوناكي فإنه يطيل بذلك أيامه"**[46]، وكان الهدف أيضا من هذه القرابين إطعام الموتى أنفسهم، لكي لا تتعرض أرواح الموتى للأحياء ولا تتناول فضلات الأطعمة في الشوارع[47].

3- الأثاث الجنائزي:

إعتاد سكان وادي الرافدين دفن العديد من الحاجيات واللوازم والحلي والأسلحة مع الموتى، فمفهوم التجهيزات الجنائزية لم يكن عادة معينة تقتضيها العقيدة الدينية بدفنها مع الأموات، فهي عبارة عن مواد وأثاث كان الإنسان يستعملها في الحياة الدنيا[48]، وهكذا كانت القبور الملكية، ومن بعدها قبور الشخصيات المهمة والأثرياء، تمتلئ بتجهيزات ثمينة ونفيسة من المواد الذهبية والأحجار الكريمة وسواها، وكانت كمياتها وقيمتها تحدد مكانة المتوفى، فمن خلال دراسة الأثاث الجنائزي الذي وجد في المقبرة الملكية في أور، لوحظ عدم خلو قبر كل امرأة من مستحضرات التجميل، إضافة إلى مجموعة من الحلي المصنوعة من الذهب والفضة، إذ عثر في مقبرة الملكة "شوب-أد" (Shub-ad) زوجة الملك (مسن-دك) على صندوق فضي جميل مع غطاء القشرة المرصعة، وفي كل هذه العناصر تم العثور على بقايا مستحضرات التجميل الفعلية المستخدمة، وهي عبارة عن دهانات أو مساحيق مخفوقة مع معجون صلب: الألوان هي الأبيض والأحمر والأصفر والأزرق وكانا الأخضر والأسود هما الأكثر شيوعًا، وغيرها من الأثاث[49].

كما وجدت العديد من الأختام[50]، وتم العثور على كميات هائلة من الخرز الذي كان يرتديه النساء والرجال بأعداد كبيرة في بعض الأحيان ، كما هو الحال من قبل الملكة "شوب-أد"، وكذا الأمير (Mes-kalam-dug)، أو صاحب القبر PG / I422[51]، ولم تكن فقط هذه المقتنيات الجنائزية، فقد وجد أثاث من الخشب والمعادن، وآلات موسيقية وغيرها، كما أشار اللوح الثامن من ملحمة جلجامش لبعض هذه المقتنيات بما يلي:

"نهض جلجامش ودخل إلى خزينته
فض الأختام وتفحص الجواهر:
الأحجار السوداء الشفافة، العقيق، اللازورد...الرخام
جهز من أجل صديقه
....نحر ثيرانا وأغناما مسمنه وكدسها من أجل صديقه
...إلى حكام العالم السفلي
...من أجل الملكة العظيمة عشتار
عساها تقبل هذا ونبتهج بصديقي
من أجل إيرش-كيجال، ملكة العالم السفلي الفسيح، أن تقبل هذا
عسى الإله تموز، تراعي محبوب عشتار أن يقبل هذا
صولجان وكرسي من اللازورد.
عسى نمتار، وزير العالم السفلي، أن يقبل هذا...."[52]

إن هذه المقاطع تثبت أن الغاية من التجهيزات الجنائزية ليس استعمالها من قبل روح المتوفى في العالم الأسفل فقط، بل من أجل التقرب وإرضاء الآلهة لتحسن معاملة أرواح الموتى في العالم السفلي "عالم اللارجعة".

4- الحداد:

إن الحداد على المتوفين والمراثي التي يندبهم بها الأحياء يعبر عن المشاعر التي كان الموت يثيرها عند سكان بلاد الرافدين القدماء مثلما يعبر عن العاطفة التي كانوا يكنونها لأقاربهم ومعارفهم المتوفين، وفي الوقت نفسه يمثل تعبيرا عن مفهوم الموت ونظرة سكان بلاد الرافدين إليه[53]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى رأوا أن دموع الأحياء ورثائهم يمكن أن يمثل راحةً للميت[54].

وكانت شعائر الحداد تُؤَدى من قبل أهل الميت، بترك الشعر أشعث أو بنتفه والنواح بأصوات عالية واللطم على الوجه، وإلقاء اليدين على الأرض وضربها وتمزيق الثياب، وكان الكهنة المختصون (كالا-ماخ)[55] و(كالا)[56] و(كالا-تور)[57] يؤدون طقوس الحزن بالضرب على الطبل والقيثارة، وأداء الأناشيد والمراثي الحزينة[58] منها ما ورد في أحد النصوص من مدينة ماري :"كاهن المناحة كالا Kala يرنم برفقة طبل halhallatu"[59] وفيما يلي نص ما ذكره الأمير جوديا الذي يوضح وظيفة كاهن الكالا:

في ذلك اليوم لم يستخدم المعول في المقبرة
ولم تدفن أي جثة .
وكاهن الـ((كالا)) لم يعزف على قيثارته .
لم يعزف أي أغنية حزينة .
ولم يرثِ أحد...
والنائحة لم تردد التعازي[60].

كما نجد في اللوح الثامن من "ملحمة جلجامش" رثاء جلجامش لرفيق العمر صديقه أنكيدو بقوله:

"اسمعوا أيها الشيوخ وأصغوا إلي.
من أجل أنكيدو خلّي وصاحبي أبكي
...إنه فرحتي وبهجتي وكسوة عيدي

لقد ظهر شيطان رجيم وسرقه مني
يا خلّي يا أخي الأصغر الذي اقتفى حمار الوحش في التلال والثور في الصحار
يا أنكيدو يا صاحبي وأخي الأصغر
تغلبنا معا على الصعاب وارتقينا أعالي الجبال
ومسكنا بالثور السماوي ونحرناه
قهرنا خمبابا الساكن في غابة ألأرز
فأي سنّة من النوم هذه التي غلبتك وتمكنت منك
طوال ظلام الليل فلا تسمعني؟"[61].

وبعد انتهاء فترة الحداد يقوم الانسان بالغسل وتطهير نفسه وقص شعره وارتداء الملابس النظيفة والتزين بالحلي وسكب الزيت على رأسه[62]. وبهذا تتم شعائر دفن الموتى في حضارة بلاد الرافدين.

خاتمة:

لم تكن الشعائر الجنائزية في حضارة بلاد الرافدين واضحة المعالم، ولم يتوفر في آثارهم الكم المناسب لمعرفة جميع التفاصيل الخاصة ببناء القبور وأهم التجهيزات الجنائزية الخاصة بهذه الطقوس، وربما هذا راجع إلى رؤية الإنسان للموت، كونه– كما جاء في ملحمة جلجامش–أمر حتمي لابد منه، وأن الحياة بالنسبة لهم هي العيش بسعادة والتمتع بكل ملذات الحياة، فاهتموا بالحياة الدنيا عن أي شيء آخر، فنظموا دنياهم وفق قوانين تضبط نظام الحياة الهادئة والسعيدة، وما تشريعات حمورابي إلا دليلا على ذلك، التي لا تزال نصوصها تدرس حتى الآن في كليات الحقوق العالمية.

قيثارة أور الذهبية عن
http://www.dinosoria.com/naissance_ecriture.htm

مدخل لأحد مقابر أور الملكية

حملة القرابين عن:
Claude Mossé, **Histoire du monde L'Antiquité**, Ed. Larousse, Paris, 2004, p27

الهوامش:

[1]– حسين العويدات، الموت في الديانات الشرقية، الأهالي، عمان، ص 35 .

[2]-Morris Jastrow and Albert Clay, An Old Babylonian version of the Gilgamesh Epic, Yale University press, London, 1920, p12.

[3]– ألبديل، سحر الأساطير، تر. حسان مخائيل إسحاق، دار علاء الدين، دمشق، ط3، 2008، ص 299.

[4]– مجموعة من المؤلفين، حضارة العراق، ج1، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1985، ص110.

[5] – نائل حنون، عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة، ط2، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1982، ص170-171.

[6]– العصر الحجري الوسيط: يمتد من 10000 ق.م إلى 7000 ق.م، وهو مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، والدي احترف فيه الإنسان الزراعة واستقرإلى جوارها في القرى، كما انتج الأسلحة التي تتم بها عملية صيد الأسماك والحيوان، وصناعة المناجل وبناء الأكواخ البيضاوية من أغصان الأشجار، وانتاج بعض تماثيل آلهة الأمومة، وتزويد الميت ببعض أدواته الدنيوية. أنظر: محمد عبد اللطيف محمد علي، تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث ق.م، مكتبة الاسكندرية، القاهرة، 1977، ص ص26-28.

[7]– مجموعة من المؤلفين، المرجع السابق، ص10.

[8]–أور: مدينة في بلاد الرافدين بالقرب من المصب القديم لنهر الفرات، وهي من المدن السابقة للوجود السومري في المنطقة، دخلت في عداد المدن السومرية في عهد الملك لوجال زاجيري في الألف الثالث قبل الميلاد، ووقعت على ما يبدو تحت سيطرة الجوتيين، ووقعت بعد ذلك تحت سيطرة إيسن ولارسا وأشور، وقد عثر في القسم الجنوبي الغربي لحرم المعبد على المقبرة الملكية وتحتوي على قرابة الألفي مدفن، وتحتوي على أثاث رائع مكون من أوان ذهبية وفضية وقيثارات، ويفع في الشرق من المقبرة مدفن الملكين من السلالة الثالثة شولجي وبرسين، كما شيد بها أشهر زاقورة. للمزيد أنظر: هنري س. عبودي، معجم الحضارات السامية، جروس برس، طرابلس–لبنان، ط2، 1991، ص ص147-150.

[9]– حسن الباشا، الفنون القديمة في بلاد الرافدين، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2000، ص 33.

[10]– الوردي محمود فارس، المدافن في العراق القديم، رسالة ماجيستر، الموصل، 2006، ص48.

[11]– نائل حنون، المعابد والمدافن، ج1، دار الخريف، دمشق، 2006، ص19.

[12] -Dominique Charpin, Les vivants et leurs morts dans la Mésopotamie paléo-abylonienne : l'apport des textes d'archives, Les vivants et leurs morts Actes du colloque organisé par le Collège de France, Paris, les 14-15 avril 2010, pub : by Academic Press Fribourg et Vandenhoeck & Ruprecht Göttingen, 2012, France, p25-26.

[13]–أما القاعدة العامة في هذا البلد الذي يسوده نظام أبوي —الأب هو أساس الأسرة الذي يصدر القرارات– أن تبقى الأسرة كلها في البيت نفسه: يخصص جناح للأبوين المتوفين يدفنان فيه، كل منهما في تابوت مصنوع من الآجر المشوي. أنظر: جان بوتيرو، بابل والكتاب المقدس، تر .روز مخلوف، دار كنعان، دمشق، 2000 ، ص 177.

[14]– نائل حنون، المعابد والمدافن، ج1، المرجع السابق ، ص19.

[15] –نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، المرجع السابق، ص233-229.

[16]– جان بوتيرو، المرجع السابق، ص 177.

[17]– عامر سليمان عامر، القانون في العراق القديم، بغداد، 1977، ص88.

[18] – عادل فائق رشيد، المدافن والمقابر في العراق القديم، مجلة الجامعة العراقية، العدد34، المجلد3، كلية الآداب، بغداد، 2015، ص389.

[19]– نائل حنون، المدافن والمعابد، ج1، المرجع السابق، ص46.

[20]– المرجع نفسه، ص 53.

[21] -Heidel (A), The Gilgamesh epic and old Testament Parallels, Chicago, 1967, p 154.

[22]- كان الحاكم يدفن في تابوت يوضع في قبو بني من الحجر أو الآجر ويحاط بعدد كبير من رجالاته وخدمه، أما الأفراد فكانوا يلفون في حصير ويدفنون في حفرات مستطيلة تحفر في الأرض وكانت الجثة إما توضع فوق قاعدة خشبية أو في تابوت خشبي وظهر في "أور" توابيت فخارية ذات شكل بيضاوي. وكانت الجثة توضع على جانبها وليس على ظهرها كما كانت ساقاها تنثني إلى أعلى نحو الرأس، أما اليدان فكانتا ترتفعان نحو الفم وبينهما آنية صغيرة للشرب. أنظر: إبراهيم رزقانه وآخرون، حضارة مصر والشرق القديم، دار مصر للطباعة، القاهرة، دت، ص 276.

[23]– طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج1 ، دار البيان، بغداد، 1973 ، ص277.

[24]-Leonard Woolley, The royal cemetery, Volume II, Printed in great Britain at the University Press, Oxford, I934, p1.

[25]- Ibid, p20.

[26] –منتهى نعمة عودة حسين، المقابر في العراق القديم، مجلة الأستاذ، العدد 614، المجلد الأول، بغداد، 2015، ص332.

[27]–طه باقر وآخرون، تاريخ العراق القديم، ج1، بغداد، 1980، ص109.

[28]-Leonard Woolley, Op-cit, p15.

باقر وآخرون، تاريخ العراق، المرجع السابق، ص110 .

[29]– طه باقر، ملحمة جلجامش، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط5،2007 ، ص173.

[30]– للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: فاضل عبد الواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة، دمشق، 1999 .

[31]– يفترض بعض العلماء أن اختفاء ممارسة قتل أفراد الحاشية والخدم ودفنهم مع سيدهم في المقابر القديمة كانت لقوم اتبعوا بعض النظم والعادات الغريبة عن أهل العراق القديم سواء من السومريين أو من الساميين، هذه العادة انتشرت على أيدي بعض الغزاة الذين وفدوا إلى بلاد سومر منهم شعب السكيتين في غرب بلاد الأناضول الذين وصلوا إلى بلاد سومر حوالي عام 4000ق.م، واستقر أصحابها وأدخلوا عاداتهم في البلاد ثم لم يلبثوا أن هزموا وطردوا واختفت هذه العادة ولم تظهر في المقابر التي ترجع إلى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد. أنظر: إبراهيم رزقانه وآخرون، المرجع السابق، ص 280.

[32]– جان بوتيرو، المرجع السابق، ص 175.

[33]– منتهى نعمة عودة حسين، المرجع السابق، ص335.

[34]– جان بوتيرو، المرجع السابق، ص 177.

[35]- Heidel, Op. Cit, p 154.

[36]– منتهى نعمة عودة حسين، المرجع السابق، ص335-336.

[37] -Heidel, Op. Cit, p 154.

[38] - Sources Orientales, Le Jugement des morts, Ed. Seuil, Paris, 1961, p84.

[39]– عبد الغفار مكاوي، ملحمة جلجامش، دار ذات السلاسل، الكويت، 1994، ص ص 222-223.

[40]– نائل حنون، المدافن والمعابد، ج1، المرجع السابق، ص 191.

[41]-Dominique Charpin, Op.Cit, p30.

[42]– بينما توصل فان دير تورن، من خلال قراءته لملحمة جلجامش، إلى أن أداء مثل تلك الشعائر كانت يومية، كما كان يفعل جلجامش لروح والده يوميا، ويبرر عدم ذكر تلك الشعائر كثيرا في النصوص غير الأسطورية، هو أنها كانت شعائر عادية جدا ومألوفة بحيث لا تعد شيئا يستحق الذكر، كذلك توصل هذا الباحث من خلال بعض نصوص التعاويذ، إلى عدة أمور تتعلق بتلك الشعائر من بينها: أن الابن الأكبر هو من كان يقود تلك الشعائر، وهي من واجبات الابن البار، وتقام عادة في المنزل حيث يدفن الموتى أسفل أرضيته، ولكن عند الضرورة يمكن أن تقام في أي مكان آخر، كما اضطر لفعله جلجامش لروح أبيه لأنه كان في حالة الترحال. أنظر: نقلا عن خالد عبد الملك النوري،" الموت كما رآه العراقيون"، مجلة دراسات تاريخية، العددان73-74، جامعة دمشق، دمشق،2001 ، ص50.

[43]– نائل حنون، المدافن والمعابد، ج1، المرجع السابق، ص188.

[44]– المرجع نفسه، ص189.

[45]– نفسه ، ص 178.

[46]– إضافة إلى القرابين المقدمة في المراسم الجنائزية كانت هناك ولائم خاصة بآلهة الموت تقام في أوقات معينة لنيل بركتها ورضاها على الأحياء، وتجنب غضبها عليهم، وهذا ما يتضح من إحدى الترانيم السومرية لسلحي (2094-2047 ق م)، ثاني ملوك سلالة أور الثالثة، ويرد فيها على لسان ذلك الملك: "أنا الذي أقام الولائم الجنائزية للآلهة وعرف كيف يشبع آلهة أنوناكي". أنظر: جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، تر. وليد الجادر، مركز الإنماء الحضاري، دمشق، 2005، ص131.

[47]–نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، المرجع السابق، ص277.

[48]–جان بوتيرو، الديانة عند البابليين، المرجع السابق، ص 49.

[49]- Leonard Woolley, Op.cit , p245.

[50]- Ibid, p325.

[51]- Ibid, p366.

[52]- نائل حنون، ملحمة جلجامش، دار الخريف، دمشق، 2006، ص ص 184-186.

[53]- نائل حنون، المدافن والمعابد، ج1، ، ص199.

[54]- نائل حنون، عقائد ما بعد الموت ، المرجع السابق، ص 290-291.

[55] -كالا- ماخ GALA MAH: في السومرية وكالمخو Galmhu في الأكدية، وتعني: الكاهن الموسيقي الكبير للغناء الحزين الذي كان يعد من طبقة كبار رجال المعبد، ولعله كان مختصاً بالمآتم الملكية. أنظر : شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، الموسيقى والطرب في العراق القديم، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد46، 2017، بغداد، ، ص111

[56]-كالا: بالسومرية و(كالو) بالأكدية، وهو الكاهن الموسيقي الذي يأتي بعد كالا- ماخ، والموسيقي من هذا الصنف يشارك في طقوس دفن الموتى موسيقياً وغنائياً، التي تؤدى بوساطة العز ف على الآلة الوترية المعروفة في اللغة ، السومرية بالاك BALAG وقد عد كاهن (كالا) مغني المراثي munambu وهو بمثابة النائح أو النادب أو الباكيLallaru . أنظر: المرجع نفسه.

[57]-كالا-تور: GALA -TUR وهو الكاهن الموسيقي الصغير المبتدئ والمتدرب أو المنشد الأصغر للمراثي. أنظر : نفسه.

[58]-خزعل الماجدي، الدين السومري، المرجع السابق، ص ص 162-163.

[59]-نائل حنون، عقائد ما بعد الموت ، المرجع السابق، ص292.

[60]- شيماء عصام البلداوي وحسن جاسم محمد، المرجع السابق، ص 111.

[61]- فاضل عبد الواحد علي، من سومر إلى التوراة، سينا للنشر، القاهرة، ط2، 1996، ص 126-127.

[62] -نائل حنون، عقائد ما بعد الموت، المرجع السابق ، ص302.